المعابد والمذابح والصلاة والصوم

وآراء الاولين فيه

ملخصة من كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في اصول علم السوسيولوجيا بقلم نسيم افندي برباري

جرت عادة الاوربيين ان يكتبوا على النصبة الاضرحة " مقدَّس تذكاراً لفلان ". وهذا التقديس لا يقتصر على الضريح بل يتناول كل ما لهُ علاقة بالميت . فاذا دخل الاحياء غرفة ميت مشوا على رؤوس الاقدام واذا تكلموا فيها كان كلامهم همساً ومهما فعلوا فعلوهُ بخشوع ورهبة . والشعور الذي يطرأ علينا في هذه الاحوال هو نفس الشعور الذي كان يخامر نفوس الاولين ولو اختلف عنهُ قليلاً . فما نقرأهُ عن هجران المتوحشين لاكواخ الموتى خوفاً من ارواحها يذكرنا بما يشعر بهِ عامة المتمدنين من الجزع عند دخولهم المقابر ليلاً وتجنبهم الدخول الى غرف الموتى ما امكن ولذلك كان لهذا الخوف الذي يشترك فيهِ المتمدنون والمتوحشون تأثير عظيم في افكارهم يجعل للموت رهبةً في النفوس . ولدينا ادلة كثيرة على ان الاعتقاد بقداسة اماكن الموتى شائع بين المتوحشين ايضاً فمقابر زعماء اهالي جزائر التونجا ترب فيجي مقدسة . واذا دفن احد رؤساء قبائل زيلاندا الجديدة في قرية صارت القرية حرماً مقدساً وعرقب من يتجاسر على الدخول اليها بالموت بل صارت الكهوف التي يضعون فيها طعام اسلافهم المتوفين مقدسة ايضاً . مثال ذلك الاشانتيون في الساحل الغربي من افريقية فانهم يعتقدون ان بلدة نيانما مقدسة لانها تحوي بيت معبودهم وفيهِ قبور ملوك اشانتي

ويتضح مما تقدَّم ان الرهبة من الموت التي يشعر بها المتوحشون قد استحالت الى رهبة دينية كالرهبة التي يشعرون بها في المعابد فقد جاء في اخبار الرحالة كوك ان اهالي جزائر صندويج وجزائر تاهيتي يعدون مقابرهم محلاً للعبادة

وقد تقدم معنا في الكلام عن العالم الغيبي ان كثيراً من القبائل التي تسكن الكهوف تخاف من الدخول في بعضها لاعتقادها انها مسكونة بارواح الاموات او الآلهة . واذا تذكرنا ان الاولين كانوا يسكنون الكهوف ويدفنون موتاهم فيها وانهم بعد ان هجروا مساكنها طويلاً بقوا يستعملونها مدافن ويأتون اليها بالقرابين والاطعمة لهم سبب اعتبار الكهوف مقدسة . ولابدَّ من ان عادة العبادة في الكهوف التي كانت شائعة قديماً في مصر نشأت عن العادات السالفة الذكر . وفي اقسام العالم المختلفة كهوف طبيعية عليها نقوش غير متقنة والكهوف الاصطناعية التي دفن فيها ملوك مصر جدرانها مغطاة بالصور الملونة وبما ان المصريين القدماء كانوا يقدمون الاطعمة

لموتاهم عموماً فلا بدَّ من انهم كانوا يقدمونها جثث ملوكهم ايضاً وهكذا صارت المدافن كهوفاً للعبادة . واذا رأيت في مصر كهوفاً غيرها استعملت للعبادة فقط استنتجنا انها مصنوعة على مثال تلك اذ لا يعقل ان البشر يختون معابد في الصخر ما لم يكونوا مدفوعين الى ذلك بعادة قديمة

وهناك نوع آخر من المعابد نشأ عن طريقة اخرى لدفن الموتى فقبيلة الاروك في سيركا الجنوبية تضع جثة الميت في قارب وتدفنه في كوخ. وقبائل غينيا تدفن موتاها في حفر داخل منازلها وهذه العادة شائعة ايضاً عند قبائل افريقية كالداهوميين واهالي الشط الذهبي وغيرهم . وصيرورة هذه المنازل معابد تتوقف على شعور اصحابها لها. فبعضهم يبقى فيها غير حاسب لروح الميت حساباً وغيرهم يهجرها ويعود اليها من وقت الى آخر بالاطعمة والهدايا لارواح الموتى فتصير معابد . واذا دفنوا الميت خارج البيت صارت الخيمة التي يقيمونها فوق قبره او فوق نعشه جرثومة ينمو المعبد منها على توالي الايام

وقد روى السيَّاحون عادة اقامة الخيام فوق القبور شائعة كثيراً في غينيا الجديدة وتاهيتي وصومطرة وجزائر الفيجي وبعض سكانها يزخرفون هذه الخيام ويضعون فيها امتعة الميت واسلحته . وكيفية استحالة هذه الخيام الى معابد ظاهرة مما ورد عن اهالي تاهيتي وهو انهم يجلسون جثث رؤسائهم وبنون امامها مذابح يقدم عليها اقرباء الميت او كاهنه الازهار والاطعمة يومياً. وجاء عن ملوك بيرو انهم كانوا يتركون اموالاً طائلة لصيانة محل العبادة الذي كانوا يدفنون فيه موتاهم وكانت سدانة هذا المحل منوطة باقرباء الميت وجمهور من الكهنة

وهذه العوائد لا تحصر في القبائل المتوحشة فقد جاء عن المصريين القدماء في كتب المؤرخين اليونان ما يشبه ذلك . وقد اتفق المصريون القدماء على احتقار بيوت الاحياء حاسبين اياها مراحل وقتية في طريقهم الى العالم الباقي وبذلوا الجهد في اتقان مدافنهم لانها المساكن الابدية. ولما كانوا يقدمون القربين في المدافن صارت مدافنهم كالهياكل ولذلك كانت ابنيتهم المقامة للشعائر الدينية مشتركة بين المعبد والمدفن حتى يتعذر التمييز بينهما بل يقال ان المصريين القدماء لم يكونوا يميزون بين الهيكل والمدفن . وقد كان هذا عاماً في اكثر بلدان الشرق كما يظهر من خرائب بترا واتروريا والقيروان حيث المدافن محفوظة في جانب الجبل على صف واحد كاليوت المنتظمة وهي تشبه غرف المساكن الاعتيادية وعدا ذلك فقد كان الاتروسكانيون يبنون الهياكل والمدافن تحت الارض على نسق المنازل التي تحفرها الاولون تحت الارض . وجاء عن قبر داريوس انهُ كان منحوتاً في الصخر على رسم قصور لكنهُ كان اصغر منهُ كثيراً. وذكر احد المؤرخين في الكلام على مدافن الكلدانيين ومشابهة قبر كورش لقبر كل ان

الهياكل والمدافن كانت عند اولئك الاقوام شيئاً واحداً ولم يكونوا يفرقون بينها

هذا من جهة اصل المعابد التي نشأت من الكهوف المخصصة لدفن الموتى او من بيوت الموتى المهجورة او من البناء الذي يقام عادة فوق القبر لتظليله . ونبحث عن البناء المتدس الذي يشاد داخل الهيكل وهو المعروف بالمذبح نرى بدأ ان اول شكل له هو ما كان فيه مشتركاً مع المعبد كما في بعض هياكل الهنود . وسببه ان التراب الباقي من القبر يجمع كومة فوقه وهذه الكومة تكبر بحسب عظمة الميت حتى يدخلها احياناً بعض الحجارة او تصير رجمة من الحجارة ثم اذا تفنن الناس صاروا يبنونها على نظام معروف ويزخرفونها بالنقوش فتصير بناء مقدساً . وذلك شائع في بعض اقسام الهند ومدافنهم تحوي بقايا نبيهم سكياً موتى وبقايا تلامذته لان اجسادهم الاصلية حرقت حسب عادة البراهمة . والزوّار يطوفون حول هذه القبور ويصلون امامها ويعتبرونها كمعابد والفرق بينها وبين المعابد الاعتيادية ان المعابد تجوفة واما هذه فلا .

والاسم السكريتي لها معناه المذبح او الهيكل او النصب الذي يقام مكان حرق الجثة

ونرجع الى كوم التراب على قبور المتوحشين فنرى انهم كانوا يضعون طعام الموتى عليها كما يضع غيرهم قرابين الآلهة على المذبح . وحيث بني الناس مصاطب لوضع الجثث وطعامها نرى ان هذه المصاطب تتحول الى مذابح . ذكر القبطان كوك ان المذابح التي يقدم عليها اهالي تاهيتي قرابينهم للآلهة تشبه النعوش التي يضعون عليها موتاهم وهي سطوح مرفوعة على اعمدة خشبية الى علو ست اقدام او سبع . وقد بنى اهالي جزائر صندويج مذبحاً كهذا امام مدفن احد نوتية كوك لتقديم الطعام لروحه . ونرى في اقسام اخرى من العالم ان القرابين كانت تقدم لا على كومة التراب فوق القبر ولا على دكة تقام لهذا الغرض بل على بناء يشاد بالحجارة والجير كما ورد عن اهالي اميركا الوسطى فانهم كانوا يبنون مذبحاً على القبر ويقدمون عليه الذبائح ويحرقون البخور . والصينيون الذين يجمعون كومة كبيرة من التراب على القبر يبنون المذبح امامه لا عليه

وقد نشأت المذابح عند الشرقيين على النسق الذي ذكرناه فكان المصريون القدماء يضعون الازهار في اعيادهم على قبر اوزيرس وعلى نواويس الموتى ايضاً . والمذابح خارج ابواب مدافن طيبة نقشت جدرانها بانواع التقدمات التي كانت توضع عليها وهي تشبه الصور التي على جدران المدافن نفسها دليلاً على انها كانت محلاً لايواء الموتى . ومع ان المصريين اهملوا بعض عوائدهم القديمة المتعلقة بالذبائح والمدافن بعد انتقالهم من حال البداوة الى حال الحضارة فقد كانت مذابحهم الاولى اما من التراب او من حجارة غير منحوتة . وقد ورد انهم دفنوا بعض

اسلافهم المشهورين في الكهوف لكن ذلك لم يكن مبرراً لهم دائماً بل لما كانوا من الاقوام الرُحَّل كانوا يقيمون الرجم على القبور من حجارة غير منحوتة كما يفعل البدو اليوم. والبدو يذبحون عليها الانعام والمواشي ولما كانت مذابح حقيقية

والمذابح تفيد قسماً لتقديم القرابين والذبائح وقد تقدَّم في الكلام على الموت والقيامة ان المتوحشين يضعون الطعام على قبور موتاهم فبعضهم يضعهُ زاداً لنفس في سفرها الطويل وغيرهم تبركاً بالميت واسترضاءً لهُ. والذي يهمنا من ذلك في ما نحن بصدده هو ان هذه الاطعمة تقدَّم في مواعيد معينة فبعضهم يقدمها يومياً وآخرون بعد فترات متفاوتة في الطول. واذا تذكرنا ان كثيرين من المتوحشين يعتقدون ان الارض مملوءة بارواح الموتى وانهُ يجب استرضاءها بالتقدمات رأينا كيف تغيرت اطعمة الموتى الى تقدمات دينية. وتظهر المشابهة بينهما واضحة من تقدمات الاعياد الموسمية في كليهما عدا التقدمات الاعتيادية فبعض الاقوام يحتفلون باعياد سنوية لجميع موتاهم يطلبون فيها الى ارواحهم ان تأكل وتشرب وهذه الاعياد شائعة كثيراً. وعندهم عدا هذه التقدمات تقدمات اخرى يقدمونها في احوال معلومة. مثالهُ ان اهالي قبيلة الدياك في الهند يقدمون شيئاً لارواح موتاهم كلما مروا قرب المقبرة وهكذا تفعل قبيلة الهوتنتوت في جنوبي افريقية. ويعتقد اهالي جزائر ساموى ان ارواح الموتى تملأ الغابات فاذا اوقدوا فيها رموا شيئاً من الطعام في اماكن مختلفة ارضاءً لها وطلباً لحمايتها. وكثيرون من المتوحشين كاهالي فيجي وبعض سكان مدغشكر وغيرهم يخصون جانباً من طعامهم كل مرة لاجل الارواح ويكبون لها شيئاً من الشراب قبل تناوله. وقد كان بعض الاقوام التي ورد ذكرها في التاريخ على شيء من ذلك. والذين يمارسون هذه العادات لا يذكرون الغرض منها. ذكر لفنستون الشهير ان احد اهالي اواسط افريقية اصيب مرة بالم عصبي فقال ان ابي يوبخني لاني لم اقدم لهُ طعاماً. فسألهُ لفنستون واين يوك اجابهُ بين الآلهة. والكفرة في جنوبي افريقية ينسبون كل مصيبة الى ارواح الموتى ويحرمون الاغنام لاسترضائها

وطريقة تقديم القرابين للآلهة ولارواح الموتى والقصد منها واحدٌ في الحالين كما نرى من المقابلة بينها. فاذا جلس كهنة جزائر صندويج للطعام صلوا اولاً ثم قدموا شيئاً مما امامهم للآلهة. وكان اليونانيون على عهد هوميروس يقدمون لآلهتهم نصيباً من طعامهم وشرابهم كما يفعل اهالي فيجي وبعض سكان مدغشكر الآن. وكما يذبح رؤساء الكفرة العجول استعانة بارواح اسلافهم في الحرب كذلك ذبح الملك اغاممون فاحد قادة اليونان في حرب تروادة

عجلاً سميناً لكرويتون العظيم . واذا اقبلت مزروعات قبيلة الامازيولو في جنوبي افريقية دعى شيخ قريتهم ان الآلهة قالت لهُ في الحلم " قد وُهبتم حيرات كثيرة فلماذا لا تقدمون لنا شكرعلى " ثم يحتفل بعيد عام لارواح الموتى . وهذا يشبه ما اعتادهُ غيرهم من تقديم باكورة ثمار الارض للآلهة . واحياناً يردف الشيخ المذكور خبر حلمه بقوله " لتقدم ذبيحة عن خطايانا لكي لا تقتلنا الارواح " . وتقديم الذبائح لدرء تهمة الآلهة شائع كما لا يخفى . والآلهة عدا التقدمات الاعيادية تقدمات في مواسم واعياد خصوصية كما للارواح وتوقف مواعيد هذه التقدمات في الحالتين على بعض الظواهر الخريفية وهي متشابهة في كنهها ومؤلفة عادة من خبز ولحم الغنم والبقر والازهار والبخور وما اشبه . وكما يزعمون ان ارواح الموتى تسر بهذه التقدمات يقولون ان الآلهة تُسرّ بها ايضاً . ومن اقوى اوجه المشابهة بين التقدمتين انهما كانتا تقدمان معاً بغير تمييز . فالمصريون القدماء كانوا يضعون مومياء اسلافهم امام مذابح الآلهة ويقدم الكهنة التقدمات ويحرقون البخور للاثنين معاً

والصوم الديني ناتج عن بعض عادات الحداد ولعلهُ نتج ايضاً عن اسباب اخرى فقد تقدم معنا ان الامتناع عن الطعام كان عند الاولين واسطة للاحلام ثم صار من اهم شروط العرافة والالهام . وقد نتج ايضاً عن الافراط في تقديم القرابين للموتى وبعد ان كان اصلاً دليل الاحترام صار فريضة دينية

وليبان ذلك نقول انهُ جاء معنا في الكلام على الحياة بعد الموت ان كثيرين من الاقوام يذبحون مواشي الميت على قبره ويحرقون امتعتهُ عليه حتى تصح عائلتهُ بعدهُ في الفقر المدقع وامثلة ذلك كثيرة في افريقية واميركا وغيرها فيضطر اهالي القرية الى اعالة عائلة الميت الى حين الحصاد الثاني بعد وفاته . فاذا تدبرنا مع ما تقدم ان اهالي الشط الذهبي والداهومي وغيرهم يفرضون الصيام على عائلة الميت الضعيفة لما كيف ان ما كان حاصلاً بحكم الضرورة صار عادة واستمر كذلك بعد ان بطل الداعي اليه . والصوم لاجل الميت قديم جداً فقد كان شائعاً بين المصريين وبين اليهود ايضاً حسبما جاء في التوراة من ان اهالي يابيش جلعاد صاموا سبعة ايام بعد دفن الملك شاول . والعلاقة بين هذه العادة وبين الاعتقاد تزيد وثوقاً بعلاقة اخرى تولدت من عادة تقديم القرابين اليومية للارواح . فالمتوحشون الذين يقدمون جانباً من طعامهم القليل لارواح اسلافهم يحتملون مضض الجوع اختياراً حتى يصير ذلك فرضاً واجباً نحو الموتى . وكينية صيرورة هذا الفرض واجباً نحو الآلهة ايضاً ظاهرة من الاساطير المتداولة بين اهالي جزائر المحيط فقد جاء فيها ان موي واخوتهُ ذهبوا لصيد

السمك فاصابوا شيئاً كثيراً منهُ فاوصاهم ان يحترسوا عليهِ حتى يرجع من تقديم قرابين الشكر للآلهة على نعمها عليهم . فلم يسمع اخوتهُ لهُ بل بدأوا بالاكل قبل تقديم القرابين فغضبت عليهم الآلهة وعاقبتهم

ولما كان للصوم الاختياري تاثير في قمع النفس وتهذيبها صار يستعمل لهذا الغرض وتعمي الناس سببهُ الاصلي ولكن لا يزالون يعتقدون انهُ واسطة لمرضاة الآلهة

(سيأتي البقية)

أجراء الحيوان وطبائعها

تولد الحيوانات على درجات مختلفة من النضوج فبعضها ينهض على قدميهِ في اليوم الاول من ولادتهِ ويتبع امهُ ماشياً كما ترى في الخيل والبقر والعجل . وبعضها يولد ضعيفاً لا حول لهُ ولا حيلة كجرو الكلب والهر . ولا بدَّ من سبب وغرض لهذا الاختلاف كما سيجيء

قال احد الباحثين في هذا الموضوع ان خشف الغزال الاحمر يستطيع الوقوف والمشي وراء امهِ بعد ولادتهِ بدقائق قليلة لكي امهُ لا تزاح الى ذلك بل تخفيهِ بين الاعشاب وتبعد عنهُ وتراقبهُ عن بُعد وتعود اليهِ مرةً بعد أُخرى لترضعهُ او تنقيهُ من الامطار والعواصف كأنها تخشى ان بفاجئها مفاجئ وخشفها صغير لا يستطيع الجري معها فتخفيهِ عن الابصار الى ان تشتدَّ قوائمهُ ويصير قادراً على الجري فيجو من الخاطر بخفتهِ

والظاهر ان هذا النوع من الغزال أكثب للقدرة على المشي حالَ ولادتهِ في بلاد تقدر اخواتها الى مشي الصغير منهُ ولا خوف عليهِ فيها اذا لم يعدُ عدواً وهو صغير فصارت المقدرة على المشي حال الولادة غريزة فيهِ . ثم تغيرت احوال البلاد او انتقل هو الى بلاد أُخرى يضرُّهُ المشي فيها صغيراً قبل ان يصير قادراً على العدو نجاةً من الاعداء بخفة الاقدام فجاء الى الخيبة ليتبع صغارهُ من المشي ويخفيها عن الانظار حفظاً لها من الخاطر

وقال آخر اني راقبت الغزلان في سهول لابلاتا باميركا الجنوبية فرأيت الغزالة تقف امام الصياد ولو كان فارساً ومعهُ كلابهُ وتقف خشفها بجانبها في اول الامر مبهوتاً ثم يعدو عدواً سريعاً مبتعداً عنها الى ان يصير على خوانٍ قدم منهُ فيختفي في نقرة من الارض او بين اعشابها بانبطاح عنقهُ حتى لا يراهُ احد ويبقى كذلك الى ان تصل امهُ اليهِ . اما هي فتبعث